أربعة كتب

— ٢ —

بقلم الاستاذ : عبد الحميد الرضيلي

٢ — « رسوم دار الخلافة لأبي الحسين الصابي »

(١) قبل البدء بالبحث عن هذا الكتاب نقول كلمة مختصرة عن هؤلاء الصابئة العلماء الذين حلوا ببغداد بعد ان جاؤوها من حران وهنا نرسم لك جدولا متسلسلا عن هذه العائلة قبل ترجمتهم

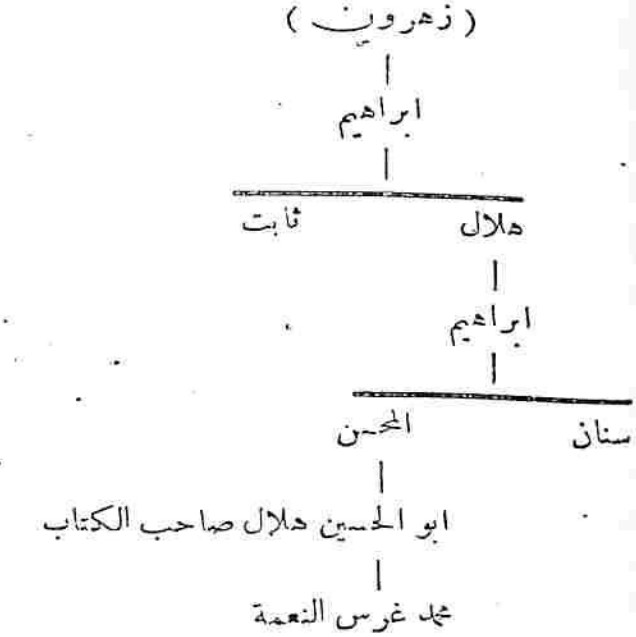

١ — زهرون وأولد هذا ابراهيم الحراني المتطبب ابا اسحاق : توفي ابراهيم هذا عام (٣٠٩ هـ)

٢ — واولد ابراهيم هذا هلالا وهو ابو الحسين الحراني المتطبب نزيل بغداد . وثابتاً المتوفي (٣٦٥ هـ)

٣ — ومن هلال تولد ابراهيم بن ابو اسحاق الكاتب الصابي المعروف ذو الرسائل وصاحب الرضي .

٤ — ومن ابراهيم هذا تولد ولدان سنان والمحسن

المتوفي (٣٦٩ هـ)

٥ ومن المحسن تولد هلال بن المحسن ابو الحسين صاحب رسوم دار الخلافه وهو اول من اسلم من هذا البيت وسنترجمه مفصلا

٦ — ومن هلال هذا تولد في عهد اسلامه ولده محمد غرس النعمة المؤرخ المشهور والمتوفى عام (٤٨٠ هـ) وبه انقرض ذكر هذه العائلة من التاريخ

(٢) هلال بن المحسن ابو الحسين المؤرخ المشهور . واحسن من استوفى ترجمته منقولة عن عدة كتب ومصادر هو المستشرق « امدروس » طابع كتابه تحفة الوزراء وطابع الجزء الثامن من تأريخه وقد اراحنا هذا المستشرق الفاضل بذكر اغلب النصوص واسماء من ذكر هذا المؤلف ومخلص ذلك : هو هلال ابو الحسين بن المحسن ولد ببغداد عام (٣٥٩ هـ) سمع كما يقول الخطيب : اباعلي الحسن بن احمد الفارسي وعلي بن عيسى الرماني وابا بكر الخراز : كتبنا عنه وكان صدوقا . . واسلم باخرة وسمع من العلماء في حال كفره لانه كان بطلب الأدب ، وقال سبط ابن الجوزي .. كان ابو الحسين هلال بن كبار العلماء والادباء ، وقال الصلاح الصفدي في الوافي .. كتب ابو الحسين لفخر الملك ابي غالب محمد بن الخان ولما مات اودعه ثلاثين الف دينار ولم تؤخذ منه لأن الوزير مؤيد الملك ابا علي الرخجي كان صاحبه واعترف هو له بذلك فقال هي لك فعاش فيها الى ان مات وقيل ان هلالا ترك هذا المبلغ لابنه غرس النعمة . انتهى مخلصاً مما ذكره هذا المستشرق

اقول وكان ابو الحسين هذا من اصحاب النعمة والترف ومن الفصحاء والكتاب اتصل بالبلاط العباسي وعرف احواله واسراره فاستطاع ان يوفق بين المتناقضات في البلاط ولا يغضب احداً وكان يتقاضى من فخر الملك فقط ايام اتصاله به عشرة آلاف دينار .

ولأبي الحسين عدة كتب مذكورة في ترجمته أما ما وصل الينا منها فهي

١ — تأريخ الوزراء المسمى تحفة الامراء طبع في بيروت

وابتدأه بترجمة الوزير ابن الفرات جعله ذيلا على تاريخ الوزراء للصولي وتاريخ الوزراء للجهشياري المطبوع .

٢ — كتاب التاريخ ذيله على تاريخ خاله ثابت بن سنان الصابي وهذا الكتاب لم يعثر منه على شيء الا الجزء الثامن وقد طبع في ليدن وبيروت في آخر تحفة الامراء ويبدأ بسنة (٣٨٩ هـ) وينتهي الى (٣٩٣ هـ) ونشر ملحقاً بذيل تجارب الأمم للروذراوري .

٣ — رسوم دار الخلافة وهو الذي نحن بصدد الكلام عنه في هذا البحث .

وهو كتاب لا يزال خطياً . ثمين جداً ومهم للدارسين آداب البلاط العباسي واداب الخلفاء واحوالهم واوضاعهم الداخلية وهو كباقي كتبه التي بايدينا يدل على ان ابا الحسين كان مثقفاً ثقافة واسعة في موضوعاته التي يكتبها وكان مطلعاً اطلاعاً واسعاً على اسرار البلاط العباسي مدققاً لا يقبل الرأي الخطير ولا المبالغة والروايات المزيفة وهو يحاكم من قبله فيما ينقلون ويجادلهم ويوجه احياناً آراءهم توجيهاً منطقياً مقبولا . والكتاب ألف في زمن القائم بامر الله وقدم له وافتتحت مقدمته وخاتمته بذكره ويمدح العباسيين واليك بعض النبذ عن الكتاب ليتضح لك اكثر : قال في اوله وفي سبب تأليفه (.. ووجدتني قد سمعت من ابراهيم بن هلال جدي ما لم يكن قد بقي في وقته من يشاركه في كثير من علمه وعلل ماوقع الاطلاع عليه منه ولا بقي الا من يشاركني في اسناده وروايته عنه وخفت ان تلحق هذه البقية تلك المواضي المنسية ورأيت حقوق النعمة التي غمرتني وغمرت اسلافي للدولة العباسية ثبت الله اركانها تقتضي العناية نشر اعلام سننها القديمة . . . وابدأ بذكر الدار العزيزة ...)

.. ومما قال في هذا الموضوع الطويل الذي بحث فيه عن كل ادوار البلاط العباسي « ... كانت الدار عظيمة السعة ... ومن بعض امورها ان كان فيها مزارع واكرة وعوائل برسمها واربعمائة حمام لمن يحويه من اهلها وحواشيها .. واما في ايام المكتفي بالله فانها اشتملت على

عشرين الف غلام دارية وعشرة آلاف خادم اسود وصقالبة .. واما في ايام المقتدر ... الخ » وفي الكتاب فصل مهم يحقق فيه المؤلف عن مدى صحة اقوال المؤرخين القدامى عن بغداد وآرائهم عن نفوسها الكثيرة وحماماتها وفيه فصل مهم ايضا عن خراج الدار ومصروفاتها ويذكر قوائم الصرف التي تشمل حتى الفراشين والبوابين واصحاب الثلج والطالبين وهذا البحث الطويل يفيد المتتبع للحالة الاقتصادية في الدور العباسي واليك نموذجا مما قال « .. حدث علي ابن عيسى ... ان الناظرين في ايام الراضي اجتمعوا على ان قدروا وقرروا النفقة في كل يوم على الحذف والاقتصاد والتخفيف والاقتصار ثلاثة آلاف دينار... » وفيه ايضا فصل عن آداب الخدم وآداب تقبيل اليد وتطورها الى تقبيل الأرض وما الى ذلك من اصول مقابلة الوزراء للخليفة وبقية الزائرين ومما قال (.. اذا دخل الداخل الى حضرة الخليفة فلم يكن من العادة القديمة ان يقبل الارض لكنه اذا دخل ورأى الخليفة قال السلام عليك امير المؤمنين وربما تقدم الوزراء والأمير فاعطاه الخليفة يده مغشاة بكمه اكراما له بتقبيلها واختصاصاً بهذه الحال الكبير محلها والعلة في ان يغشيها بكمه لئلا يباشرها بفم اوشفة وقد عدل عن ذلك الى تقبيل الارض .. فاما ولاة العهود من اولاد الخلفاء والاهل من بني هاشم والقضاة والفقهاء والزهاد والقراء فما كانوا يقبلون يداً ولا ارضاً لكنهم يقتصرون على السلام . .

وفي الكتاب فصل مهم عن كيفية قراءة الاشعار امام الخلفاء والوزراء والكتاب وكيف يكون ذلك وهو فصل قلما يوجد في غير هذا الكتاب كذلك في الكتاب واثناء طياته امور ورسوم وعادات كثيرة عن آل بويه ممن عاصرهم المؤلف وقال في فصل آداب النزول والركوب (.. اما مراتب النزول والركوب من الدور والابواب فلها حدود يعرفها البوابون ويأخذون الناس بالوقوف عندها وترك تجاوزها وعلى خلفاء الحجاب والبوابين ان يمنعوا الجند من دخول الدار بسلاح الامن كان برسمها من الخدم والغلمان والدارية

النجف وارأى امام

— ٢ —

بقلم : الاستاذ مهدي المخزومي

اتى على النجف حين من الدهر كانت فيه قبلة الرواد من اهل العلم ، يؤمها منهم مئات ، ويتركها بعد ان يتزودوا منها مئات ، يؤمها طلاب العلم من سوريا ولبنان ويؤمها طلاب العلم من الهند وايران وافغانستان . وكانت النجف الى عهد قريب — كنت قد شاهدته ووقفت على اخباره — خاصة مجالسها بالبحث والجدل والمناقشة ملأى جوامعها بحلقات التدريس في فروع الثقافات المختلفة من نحو وصرف وبلاغة ، ومن منطق وكلام وفلسفة ، ومن فقه واصول فقه ، ومن هيئة — وهي الجغرافيا الفلكية القديمة — وحساب وجبر ، ناهيك عما كان يزين محافلها من شعر وادب .

كانت النجف كذلك الى عهد قريب ، وكانت النجف اذ ذاك مكهربة الجو علماً وأدبا لا يدخل اليها داخل حتى يصبح وكله رغبة في طلب العلم وتحصيله .

اما الآن فقد حل السكون محل الصخب النافع القائم على الجدل والمناقشة ، وقد حل الكلام عن الامور التافهة محل تلك المسائل التي كانت تعرض فتتلاقفها افواه المستمعين شرحا وتحليلا ، وقد حل اشباه الطلبة محل اولئك الفطاحل من اهل الفضل ، ولم يبق في النجف — اذا استثنينا جماعة قليلة — الا تماثيل لا تشبه اسلافها الا من حيث الشكل واصبحت النجف في الدرجة الثانية تقريبا بالنسبة الى المدن العلمية في العراق بعد ان كانت ممتازة لا تطاولها مدينة اخرى مهما كثر اهل العلم بها .

فما ذا نعلل ذلك ؟

أنعلله بضعف الحالة المادية ؟ ومنطق الوضع فيها يحكم بضعف هذا التعليل فحالة النجف المادية الآن اقوى منها بالأمس ، والواردات التي ترد اليها كثيرة جداً لا تكاد عقول طلابها الاولين تصدقها وهي توزع عليها بشكل يضمن لهم — الى حد ما — استمرارهم على طلب العلم دون ان يفكروا في شؤون معاشهم ، واخبار طلابها الاولين تحدثنا ان احدهم لا يكاد يجد قوت يومه ، وان احدهم كان يقتات بالكسر اليابسة من الخبز ، يقضي اكثر حياته العلمية بهذا الشكل وهو راض عنها وعن نفسه وعن الناس .

أم نعلله بظهور المدارس الحديثة وانتشارها ؟ ولكن هذا منطق لا تطمئن اليه النفس لان ظهورها وانتشارها لا ينافي وجود المدارس القديمة ولا يتعارض معه ، واذا كان هناك تنافر بين حقيقتي الدراستين فلماذا نرى الجامع الازهر يصمد هذا الصمود امام التيارات الثقافية الجديدة دون ان يعترف بتهديدها ودون ان يظهر منه ضعف امام قوتها الجارفة ؟؟

ومن اذن له في ذلك وليس لاحد ان يجلس في دار الخلافة على كرسي الاحاجب الحجاب واميرالجيش ..) وقال في فصل الالقاب (.. وتلقب الخلفاء .. منذ لدن ابي العباس الذي اختلف في لقبه فقيل القائم وقيل المهتدي وقيل المرتضى لما غلب عليه السفاح لكثرة ما سفح من دماء بني امية ...) وفي آخر الكتاب فصل واسع في النصائح والآداب التي يجب ان يتصف بها جليس الخليفة ومما قال (.. ودع الشكوى فانها ثقيلة والالحاح فانه من اكبر دواعي الحرمان وعليك بالشكر فانه مادة الاحسان والصبر فانه عدة للانسان وكن اصم عما تسمعه واعمى عما تلحظه وكتوما لما تستحفظه واميناً على ما تحضره ولا تدخل في سر كان مطويا عنك ولا تنصت الى قول كان مستوراً عنك .. الخ وهو بحث يدل على مدى الاستبداد والدكتاتورية التي كانت تشمل القصر العباسي وفي آخر هذا الفصل يمدح المؤلف القائم بامر الله مدحا طويلا جداً يدل على مدى الاخلاص هذا المؤلف ومدى مداراته لهذا الخليفة وشدة تقربه وما في هذا الموضوع من جمال الاجمال اسلوبه البليغ البديع ...

« يتبع »

عبد الحميد الدجيلي